

ISSN 0970-3713

ثقافة الهند

Vol. XLVI Nos. 1-4 1995

العدد ٤-١

المجلد ٤٦

١٩٩٥م



المجلس الهندي للعلاقات الثقافية

مجلة ثقافة الهند الفصلية

المجلد ٤٦ العدد ١-٤

١٩٩٥م

محتويات العدد

الاستاذ العلامة حميد الدين الفراهي

٣٣ - ٥١

الاستاذ محمد راشد الندوي

الأستاذ العلامة حميد الدين الفراهي

آراءه في النقد والبلاغة (١)

بقلم : الأستاذ محمد راشد الندوي

إذا نظرنا إلى هذا الكون وجدنا فيه أنواعا وأشكالا في الأمم والأقوام تمتاز كل أمة من الأخرى في لغتها وبيانها في حضارتها وثقافتها وفي طرق معيشتها وتمتاز بصحة جسمها وجمال وجهها في دقة إحساسها وسعة أفقها كما نجد أمة تعيش على جبال شامخة تتمتع وديانها بخصبة أرضها وزلال مالها وجمال حدائقها وأريج أزهارها تشفها نسمات الصبا فهذه كلها من نعم الله سبحانه وتعالى التي أنعم بها عباده وهذه النعم متنوعة مختلفة ومقسمة لذلك لا نجد أمة حازت هذه النعم كلها ولا يمكن لها أن تقول إنها تفوق الأمم جميعا . فكلما ندقق النظر في هذا الكون ونمعن الفكر يتجلى لنا بأن الله رب العالمين رب المشرقين والمغربين ، رب الأبيض والأسود . رب القوي والضعيف ، رب العالم والجاهل ، رب الجميل والقيبح ، رب الصغير والكبير . فكلما نفكر في خلق الله وملكوته يزداد إيماننا وتتقوى عقيدتنا بربوبيته ورحمته حيث أودع في كل أمة من الخصائص والميزات ما أودعه .

كانت الأمة العربية تعيش في الصحارى القاحلة والجبال العادية وكانت حياتها حياة ضنكة ومعيشتها معيشة خشنه ساذجة ، الخيم دارها وظهور إيلها مركبها كانت بعيدة كل البعد من الحضارة والثقافة محرومة العلوم والمعارف التي تتمتع جيرانها من أمم الرومان واليونان ومصر . حرمت رفاهية العيش وسعة العلم فعوض الله بنعم لا تقل معنا وهي الصفاء في الطبيعة والفصاحة في البيان والبلاغة في اللسان والحمية في الخلق والجود والسخاء والبعد عن الجبن والنفاق وهذه النعم حرمتها الأمم المتقدمة المهذبة فشاء القدر أن تكون هذه الأمة في المستقبل أرقى أمة في العالم في العلم والمعرفة ونظم الحكم وطرق المعيشة وتقود الأمم الأخرى إلى كل خير ورشد وهداية إذ بعث الله نبيا من أنفسها " هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين " . (٢)

ثقافة الهند

فالعرب كانوا فخورين بلغتهم كما كانوا فخورين بأحسابهم و أنسابهم مهما كانت هذه الأنساب و مهما كانت هذه الأحساب فعرافة الحسب و أصالة النسب كانت أعز نعمة لدى هؤلاء الأميين وكانت اللغة العربية لغتهم التي كانوا يعتزون بها أي إعتزاز و يفتخرون بها أي افتخار فقد نقحوها و رتبوها و أحكموها فزينوا حواشيها و نمقوا أطرافها حتى أصبحت محكمة الأطراف و مرتبة الجوانب متينة التركيب رصينة الترتيب فكانت مستعدة كل إستعداد لتكون لغة آخر كتاب سماوي و هو القرآن الذي يكون هداية و نورا إلى يوم القيامة . "إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون" فقد كان القرآن الكريم آخر معجزة سماوية للإنسانية جمعاء و كان نزوله في هذه اللغة دليلا بأنها أقوى لغة في العالم و أبلغها و محكمة الجوانب و الأسس لا يغيرها كزّ الليلي و مر الأيام وإنها حفظت القرآن الكريم من الضياع والفناء كما أن القرآن عصمها وأبقاها فأصبحت باقية ببلاغتها ونصاعتها و أصبحت بفضل القرآن مركزا للدراسة والبحث كما أصبحت في مركز عالي ومكانة سامية بين اللغات من أعجب الأمور و أغربها بأن الإسلام قد قضى على جميع مظاهر الجاهلية و آثارها و قد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أن يكون في قلب أي مسلم أي إحترام و إعتزاز للجاهلية و عاداتها اللهم إلا اللغة فإنها بقيت موضع احترام و إجلال و إكرام مع أنها تشتمل على كثير من عادات الجاهلية و آثارها و لكن مع ذلك لم ينصرف العرب عنها حتى بعد الإسلام و لم يهملوها فجميع العلوم و المعارف التي إنبتقت و نشأت بفضل القرآن والإسلام كانت هي مصدرها و مرجعها في تفسير القرآن و توضيح نصوص الإسلام وتأويل الأحكام واستخراج المسائل واستنباطها إذا بقيت اللغة العربية موضع دراسة و بحث للعلماء و الفقهاء والمحدثين و المفسرين من القرون الأولى إلى يومنا هذا . فكل من يريد أن يكون مدركا بإعجاز القرآن و بلاغته فلا بد أن يدرس الحياة الجاهلية كما لا بد أن يدرس الأدب الجاهلي من نثره و نظمه ربما فيه من أمثال و حكم فكلما كان الباحث ملما بالأدب الجاهلي و مدركا روحه يكون موضع ثقة و موضع إحترام و إجلال لدى العلماء و الباحثين و من حسن الحظ أن العلماء و الرواد قد بذلوا جهودهم في جمع أشعار العرب و أمثالهم كما بذلوا جهودهم في شرح الشعر الجاهلي و حل لغته و ضبط معانيه لذلك كانت دراسة الشعر الجاهلي أهم مادة لدراسة اللغة في جميع العصور و كانت المدارس العربية في جميع العصور و جميع البلدان تعير عنايتها دراسة الشعر

الأستاذ العلامة حميد الدين الغراهي

الجاهلي في مناهج اللغة والأدب و إنبثقت علوم كثيرة و معارف متنوعة بفضل القرآن الكريم و الحديث الشريف فقد أبدع العلماء المسلمون فيها براعتهم و لباقتهم فالأمة العربية في الجاهلية ما كانت تعرف القراءة والكتابة ولم تكن على أى حظ من الثقافة و الحضارة فقد أصبحت تؤلف الكتب في المعارف المختلفة التي أصبحت فيما بعد معجزة خالدة للإسلام .

لم يمض على بعثة النبي صلى الله عليه و سلم قرنان حتى أصبحت المكتبة العربية زاخرة بمؤلفات علمية و رسائل أدبية ما كانت تباريها و تنافسها مؤلفات الأمم المتقدمة التي مضت على رقيها و تقدمها قرون و أجيال فالكتب التي ألقت في الفقه و أصول الفقه حارت العقول في عظمتها و جلالها فكتاب " الأم " للإمام الشافعي و كتاب " المؤطا " للإمام المالك و كتاب " المبسوط " للإمام محمد و كتاب " الخراج " للإمام أبي يوسف تعد من أروع ما أنتجتها الأقلام في تاريخ العلم و الثقافة في العالم .

لما فتح المسلمون البلدان المختلفة دخلت في الإسلام أمم مختلفة لم تكن اللغة العربية لغتها بل هي حصلت بها بجدها و اجتهداها لذلك كانت تحتاج إلى علوم و معارف تصونها من الزلق والخطأ في الكلام والإعراب و تعينها في أرهاف الذوق الأدبي فألفوا كتباً في علوم اللسان و البيان هي تعد من أقوى المصادر و المراجع لفهم اللغة إلى يومنا هذا . و قد عرفت هذه العلوم و المعارف فيما بعد بالنحو و الصرف فكتاب " المفصل " للزمخشري و " المغني " لابن هشام و " الكتاب " لسيبويه تعد من نواذر كتب اللغة و أصولها حيث لم تترك صغيراً ولا كبيراً من قضايا النحو و الصرف إلا إحتوتها و ضمتها في طيات صفحاتها و لا غنى عنها لأى باحث ولا دارس لهذا الموضوع حتى إلى أيامنا هذه . فهذه العلوم إنما نشأت و تطورت بفضل الإسلام و المسلمون قد طوروها و نظموها و نقحوها و كانت بجانب هذه العلوم علوماً ما كانت العرب يعرفونها كموضوع و علم و هذه العلوم هي علوم البلاغة و الفصاحة و النقد إنما كانوا يعرفونها تذوقاً و شعوراً لأنهم خلقوا و جبلوا على تذوق الفن و إدراك الجمال بأحاسيسهم و أدواقهم فكانت هذه العلوم جديدة و غريبة لدى المسلمين فاستعانوا في تطويرها و ترتيبها بعلوم الأمم المتقدمة و كانت هذه العلوم و المعارف معروفة عندها منذ قرون و أجيال فرتبوها في مراحل مختلفة في حياة ثقافتها و آدابها .

ثقافة الهند

و حينما بدأوا يرتبون علوم الفصاحة و النقد فلم ينجحوا في تطويرها كما نجحوا في تطوير العلوم الأخرى كالفقه و الحديث و التفسير والفلسفة بل وقعوا في المزالق و لذلك فكان تطور هذه العلوم بطيئاً جداً لأن الأسس و المناهج لهذا الفن الرفيع الدقيق لم تكن واضحة المعالم و المناهج و السبب في ذلك أن هذا الفن كان محتاجاً في ضبط قواعده و مصطلحاته إلى الأساليب العربية الصحيحة و لكننا نجد أن الباحثين العرب بهذه العلوم اضطربوا أي اضطراب لأنهم مرة كانوا يستعينون بأدواقهم الخاصة كما كانوا يستعينون بالأساليب العربية الأصيلة و مرة كانوا يستعينون في ضبط تعريفها و ترتيب أسسها و مناهجها بآثار اليونان فمرة كانت تغلب على هذه العلوم النزعة اليونانية و مرة تغلب عليها النزعة العربية التي مصدرها الأساليب العربية الصحيحة والقرآن الكريم وهنا نجد تيارين مختلفين يسيران جنباً لجنب في تطور علم البلاغة و النقد يمكن أن نسمي هذين التيارين بتيار عربي صميم و تيار أجنبي عقيم و نجد هذين التيارين مستمرين في تاريخ الأدب العربي و نجد من العلماء و الباحثين حسب منزعهم و حسب ذوقهم و حسب دراستهم و حسب عقيدتهم و فكرهم يناقشون و ينازعون ويخاصمون آرائهم المختلفة .

لاشك أن الثقافة العربية قد استفادت بهذين التيارين المختلفين المتحاربين المتضادين والمتصارعين و لكن الحيرة الفنية النقدية لم تنته بعد لأن الفكرة الصحيحة والأسس السليمة كانت في حاجة أن يعرف علماء العرب و نقادهم الأسس الصحيحة التي قامت عليها أسس النقد والفن اليونانية ثم كانوا في حاجة أن يعرفوا آراء أرسطو من المصادر اليونانية ثم كانوا في حاجة أن يعرفوا الحياة الأدبية و السياسية والاجتماعية التي كانت قبل أرسطو في اليونان ولو سلكوا هذا المسلك واختاروا هذا الطريق لعرفوا التطورات الأدبية في المراحل المختلفة و بعد ذلك أخذوا آراء أرسطو و نظرياته بهذه الطريقة فكان بإمكانهم أن يتجنبوا المآزق و الأخطاء التي وقعوا فيها لأننا نجد المراحل المختلفة التي مر بها الأدب اليوناني مصطبغا بالصبغة المحلية فالخطب و الرسائل والأشعار كلها كانت متلونة بالنزعة المحلية المحدودة و لا نجد فيها النزعة الإنسانية العالمية فالأدب الإنساني العالمي هو جدير بأن يؤخذ و يقلد و يطبق في بيئات مختلفة و لغات عالمية أخرى . أما النظريات المحلية الضيقة التي هي بنت الساعة فلا تستحق الدراسة و العناية التي

الأستاذ العلامة حميد الدين الفراهي

نشأت و ترعرعت في بيئة عربية خالصة مختلفة عن البيئات المختلفة في ذلك العصر
أما بعد الإسلام فقد تغيرت علوم اللغة و أصبح القرآن مركز المباحث و منبع كل علم
و مصدر كل فن و السبب لكل حركة و دعوة .

و أصبحت اللغة العربية محكمة الجوانب و طيدة الأركان لا يغير ظاهرها و لا
باطنها العواصف الهوجاء فالبلاغة العربية تقدمت و تطورت بفضل بلاغة القرآن
الذي كان نورا و هداية للإنسانية كلها و تضاءلت أمامها بلاغة البلغاء و فصاحة
الفصحاء و انطفأ أمام أسلوبه القوي المتحرك كل أسلوب أيا كان صاحبه فكلما أمعن
الباحث وجد في طياته روحا بديعة و قوة متحركة متجددة كما يجد بين سطوره المعاني
السامية و الحكم النادرة و المثل العليا فالبلاغة العربية بلاغة أصيلة متجددة كما أن
معانيها عالية سامية مثمرة . فكان من الجدير أن يجعل العرب أسس كل بلاغة و نقد
تقتبس من بلاغة القرآن و معانيه فالبلاغة العربية الأصيلة هي كما يصفها الكاتب
العربي الكبير أستاذ مدرسة البلاغة العربية الأصيلة أبو عثمان الجاحظ :

” أفضل الكلام ما كان قليلا يغنيك عن كثيره و معناه ظاهرا في لفظه و كان الله قد
ألبسه من ثياب جلالة و غشاه من نور حكمته على حسب نية صاحبه و تقوى قائله ...
فإذا كان المعنى شريفا و اللفظ بليغا صحيح الطبع ‘ بعيدا عن الاستكراه و منزلها من
الاختلال و التكلف ‘ صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة و متى فصلت
الكلمة على هذه الشريطة و نفذت من قائلها على هذه الصفة كساه الله من التوفيق
و منحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به حدود الجبابة و لا يدهل عن فهمها به معه
عقول الجهلة “.

في ضوء هذه العبارة نقدم نموذجا من القرآن الكريم نستشف منه روح البلاغة
و روح الأدب العالي السامي :

الله نور السموات و الأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في
زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية و لا غربية
يكاد زيتها يضيء و لو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء “ .

كان ينبغي للنقاد و علماء البلاغة أن يستمدوا روح البلاغة و النقد من القرآن
الكريم و الأحاديث النبوية و قصائد الشعراء الكبار من العصر الجاهلي إلى العصر

ثقافة الهند

العباسي الذي نضجت فيها الأفكار و استقرت فيها الأسس فكانت البلاغة و النقد العربي في حاجة إلى غربلة و إلى تمحيص فقد شاء القدر أن يقوم بهذا العمل الجليل عالم من علماء الهند و هو الشيخ العلامة حميد الدين الفراهي هو عالم قل نظيره و مثيله في عصره ولد في سنة ١٨٦٢م في قرية فريها من محافظة أعظم جاره بولاية أترابرايش في أسرة موسرة غنية كان أبوه إقطاعيا كبيرا فنشأ و ترعرع في رفاهية و نعمة يقول عنه العلامة الكبير شبلي النعماني " من الحقائق الثابتة أن الإنسان إذا بلغ ذروة المجد و الكمال من المعرفة و العلم نال الشهرة و السمعة في عصره و لكن قد يستثنى منه بعض الناس ومنهم العلامة الشيخ حميد الدين الفراهي الذي بلغ القمة في العلم و المعرفة ولكنه أثر الخمول على السمعة و الاعتزال على الشهرة و هو صاحب كتاب عجيب في بابيه نادر في موضوعه و هو جمهرة البلاغة درس الشيخ حميد الدين الفراهي في المدارس القديمة و أنهى فيها الدراسة الأدبية و الإسلامية ثم درس على كبار شيوخ الهند و علمائها مثل فيض الحسن شارح ديوان الحماسة الذي هو أستاذه أيضا و بعد إنهاء الدراسة العربية الإسلامية أقبل على دراسة العلوم الجديدة و اللغات المعاصرة فانتسب بجامعة علي كره الإسلامية و حصل على شهادة الليسانس في الآداب . و حينما جاء إلى جامعة علي كره كان قد أتقن اللغتين العربية و الفارسية و كان يكتب فيها و يتكلم بالطلاقة بل كان يقول الشعر فيها حتى كان ينافس الشعراء العرب و الفرس في اللغة العربية و الفارسية أثناء إقامته في جامعة علي كره و قد نقل عدة كتب من اللغة العربية إلى اللغة الفارسية للسيرة النبوية العطرة و أصبحت هذه الكتب فيما بعد من مقررات قسم الديانة و الإسلام و بعد تخرجه من جامعة علي كره عين أستاذا في اللغة العربية في مدرسة الإسلام بكرانشي و هو إلى الآن يشغل هذا المنصب العلمي الجليل و قد طبع ديوانه في اللغة الفارسية فنال إعجاب العلماء و الشعراء في الهند و استمر في الدراسة و البحث طول حياته و كان جلّ اهتمامه دراسة القرآن الكريم فكان يرى أن القرآن لا يمكن إدراك معانيه السامية و الوصول إلى كنهه و أسرارهِ و التذوق ببلاغته و فصاحته إلا بدراسة اللغة التي نزل فيها لذلك انكبّ على دراسة الشعر الجاهلي و الأدب الجاهلي فقرأ كلما وصلت إليه يده من دواوين الشعراء الجاهليين و كتب الأنساب ثم درس دراسة جديدة الحديث الشريف و بعد ذلك انكبّ على دراسة العلوم التي تفرعت و تطورت بفضل القرآن وهي علوم

الأستاذ العلامة حميد الدين الفراهي

النحو و الصرف و علوم اللغة و البيان و ما ظهر فيها من كتب النقد و البلاغة فأدرك بذوقه العلمي الفني العالي ما في القرآن و ما في الأدب العربي من قوة و حياة و ما فيه من فصاحة و بلاغة فكان يحس و يشعر بل كان هو يرى بعينه ما في اللغة من جمال و بهاء كما ينظر الرجل المتذوق الماهر إلى الأزهار المتفتحة و الأوراد الباسمة في الحديقة فيتمتع بأريجها و نكهتها كما يتمتع بنضارتها و سحرها فلما درس العلامة الفراهي كتب العلماء و الأدباء في النقد و البلاغة و إعجاز القرآن رأى أن هذه الكتب لم تبحث و لم تدرس الأدب العربي الأصيل و القرآن الكريم دراسة مثمرة منتجة بل هي دراسة عقيمة جوفاء لا تخلق في القارئ الذوق الأدبي السليم و لا توصله إلى بلاغة الأدب العربي الصحيح و لا تعينه في فهم إعجاز القرآن الذي هو المثل الأعلى في البلاغة و البيان فبدأ يبحث المصدر الذي استفاد به علماء البيان و البلاغة فتيقن أن هؤلاء جميعاً جعلوا الكتب اليونانية مصدرهم و اعتبروا أرسطو إماماً لهم .

كان الأستاذ الفراهي يعرف اللغة العربية و الفارسية و الأردوية و كان يتقن اللغة الإنجليزية اتقاناً تاماً و يعرف اللغة اليونانية و يقرأ فيها الأبحاث و العلوم فقد استطاع أن يدرس جميع ما كتب في اللغة العربية في علوم اللغة و البلاغة و النقد كما قرأ ما كتب في اللغة الإنجليزية من النقد و البلاغة و ما درس علماءه و نقادها كتب أرسطو و آراءه في الفلسفة و السياسة و الخطابة و البلاغة و النقد فاستطاع أن يدرك بعلمه الوافر و ذوقه المرفه و تجاربه العلمية الواسعة أن الفساد و الخلل الذي وقع في اللغة العربية و ما وقع علماءها فيه من الأخطاء إنما هو سببه هو أرسطو و ما كتب في البلاغة و النقد هنا فشمّر عن ساق الجد و بدأ ينقد الثقافة اليونانية و آدابها و يهدمها هدماً و كان يريد بذلك أن يكشف الغطاء عن الحقيقة و يعرف الناس ما هي البلاغة العربية و ما هو النقد الصحيح فكتابه جمهرة البلاغة يدور حول هذه الفكرة . نحن نقدم هنا مقتبسات من كتابه لنصل من خلالها إلى ما قدم من آراء جديدة و أفكار مبتدعة في هذا النوع أولاً هو يبحث البلاغة عند العرب و البلاغة عند اليونان فيقول :

" فاعلم ليس أن العرب أعطوا البلاغة و لم يعطوا تمييزاً بين محاسن الكلام و مساويه و انتباهاً لمواضيع الجودة و الرداءة فيه فإنهم كانوا يباهون لبراعة الكلام و يحكمون بينهم من كان أبصرهم بنقده و الأخبار في ذلك كثير حتى بلغ أمر البلاغة فيهم منزلة نظام المعاشرة فكان خطيبهم يأخذ بزمام القوم و يقودهم هذا شأنهم أن

ثقافة الهند

يجري ذوقهم في هذه الصناعة على سنة أصول معلومة و إلا كيف يقضى فيهم حكمه وكيف يذعن لحكم أرباب العقل فيهم و إن رأيت في كتب الأدب نقدهم و بيانهم و وجوه المزية على كلام علمت باليقين صدق هذه الدعوة و ذكرنا نبذا منه في باب اختيار اللفظ ثم علمت أن سبيلهم في نقد الكلام لم يكن كسبيل فكان سبيله سدا بينه و بين العرب فلو التزموا كلام العرب و لم يلفتوا إلى أصول مهدا المبعدون لكان خير الهم و كانوا أقرب إلى معرفة إعجاز القرآن من طريق الذوق و لم يكن من طريق الصناعة".

و كانوا أقل عذراً من أرسطو و هو أول كاتب يوجد رأيه في هذا الفن فبدأ كتابه على الشعر بقول كاد يهديه إلى الصواب حيث يقول :

إن أصناف الشعر و النغم جنسه الأعلى محاكاة فإن الإنسان إما من الفطرة أو من التعلم يحاكي أشياء مختلفة بوسيلة اللون و الشكل أو بالصوت . فلو قال إن الشعر بل كل كلام و نغم جنسه الأعلى تصوير ، لكان أقرب إذ ليس بين المحاكاة و التصوير إلا فرق يسير و لكنه أبعد عن الصواب . استعمالهم إياه ولو بحث عن أمر الشعر على طريق الفلسفة و نظرفيه من جهة العلل التي ألح على البحث عنها في ما بعد الطبيعة و رد فيه على الحكماء الأقدمين لم يخف عليه الصواب بعد الاقتراب و لم يلتبس عليه غاية الشعر فمرة يزعم أنها الأثر و الاطراب و حيناً يزعم أنها القصة لأن العمل غاية كل شئ الصفة لكن هذا أمر يخرجنا عن فن البلاغة إلى علم الأخلاق و إنا لنحسن الظن بأرسطو فنقول لعل كتابه على الشعر بداية ريعان حكمته و كان أولى بنا الصنف عن إبراز باطله لولا إن رأينا أثره قد تغلغل في هذه الصناعة و السناس إذعنا له فيما مهده فإنه عندنا لأقرب عذرا من علماءنا الذين كتبوا على البلاغة بعد ما رأوا إعجاز القرآن و عجائب لغة العرب و ظني به أن الرجل لو كان في العرب و رأى حسن كلامهم أصاب الحق و لكنه نظر في كلام قومه فبنى فن نقد الشعر حسب ما وجد في أحسن كلامهم و لما كان جلّ أشعار اليونان قصصا و حكايات مكذوبة مثل نظم هو ميروس و سوفالكين و غيرهما و فأمعن فيهما لاستنباط أصول النقد و مناط المحاسن و هذا هو الطريق فإن المحاسن توجد أولاً ثم أهل النظر يستخرجون منها الأصول كما أن أصول الطبيعيات تستخرج عن آثاره و لكن قلما يسلم المرء عن الخطأ في استنباط أصول الآثار فإن الشئ المؤثر يستجمع عدة صفات فالمستببط ربما يتوهم الصفة الغالبة على سائرha مناط الأثر الذي يطلب أصله مثلاً إذ رأى زنجي أن الإنسان أكثر

الأستاذ العلامة حميد الدين الفراهي

عقلا و أبين لسانا من سائر الحيوانات و رأى أن الصفة الغالبة الفارقة الظاهرة هي سواد جلدة و تعريه من الشعر فتوهم أن الأسود الأملس أكثر عقلا و بياننا من غيره فإذا رأى رجلا على غير هذه الصفة ظنه أشد الناس بلادة و عيا لا تستبعد هذا الأمر من الملقبين بالحكماء ألا ترى أين سيناء كيف غلب ظنه أن الحياة و القرى من الحرارة و إن النضج أشد ما يكون في الأقاليم الحارة فأكمل الناس بنية من يسكن تحت خط الاستواء و لمثل هذه التوهمات أمثلة لا تحصى فإن موقف المستنبط للأصول موقف صعب فكثرت فيه مصارع الحكماء حتى لا يخفى على العامة شدة اختلافهم فيما بينهم و حسبك منه هذا القدر هنا .

فلما رأى أرسطو أن غالب صفة المستحسن كونه قصة و حكاية عن الوقائع ثم رأى أن هذه الحكايات ربما لا تطابق الوقائع و بكذبها لا تزداد إلا حسنا غلب على ظنه أن حسن الكلام في كونه حكاية ثم التمس المثال فوجد أن التصوير يستحسن و إن كان يحكي شيئا قبيحا ثم أحكم هذا الرأي بالتماس علاقة بين الاستحسان و الحكاية فاعتصم بأمرين الأول أن الإنسان حاكية بالطبع أكثر من سائر الحيوان فهذه الصفة عن سبب طبعه و أحبها إليها . و الثاني أن العلم مرغوب بالطبع و حكاية الشيء تخبر عن الحكى عنه فلذلك هي محبوبة فإذا رسخ هذا الرأي عنه استقام و تعصب له و رد على كل إمرء رأى خلاقه مثلا استحسن جواب سوفاكليس حين أخذوا عليه إنك وصفت الناس خلاف صفتهم فقال : إني وصفتهم كما ينبغي و يورابديس وصفهم كما هم عليه . (٣)

ثم لما كان جلّ أشعارهم للتلذذ و التلهي في محافل المسامرة و نادى اللهو بحكايات مضحكة مبكية لم يجد لمحاسن الأشعار غاية إلا الاطراب فقال إن يكن الصدق لا يطرب فينبغي للشاعر أن يزيد أو ينقص و يكن في عندهم المخلوق الذي يضع الحكايات و القصص لاطراب السامعين .

و لما رأوا أن أرسطو أسس الأمر على مهارة الاختلاق سبق إلى ظن بعضهم أن أحسن الشعر أكذبه و إذ ليس في أشعار العرب من أمر القصة و الحكاية إلا التشبيه ظنوا أن الغلو في التشبيه من المحاسن و كما أن المحاكاة صارت عمود الرجاحة عند أرسطو فكذلك صار التمثيل و التشبيه الذي يشابه القصة عندهم قطب البلاغة ثم إنهم واقفوه في عين هذا الرأي فإنه قال في عد محاسن الكلام "إن أعلى كمال البليغ أن يكون حاذقا في استعمال التشبيه" و قال صاحب أسرار البلاغة : "كان جل محاسن الكلام إن لم نقل

ثقافة الهند

كلها متفرعة عنها (أنواع التشبيه) و راجعة إليها فانظر (ما أشبه الليلة بالبارحة) فدخل في الكلام بذكره و خرج به و كان نتيجة هذا الرأي أن المتكلمين من المولدين عكفوا عليه فغاب عنهم ما كان للعرب من سحر الكلام و إعجازه و الورود عليه ليس الآن يبعد عنها و لج بهم المتسلسل من جهة أخرى فإنهم وجدوا الاستعارة ألد من التشبيه التمسوا الفرق بينهما فبادر إلى الفهم إنه هو الغلو فإنك مثلا إذا قلت زيد كالأسد فإنما شبهته بالأسد و لكنه إذا قلت رأيت أسدا فكأنك جعلته عين الأسد فغلب على ظنهم أن الحسن أميل إلى الكذب و ستعلم أن العرب لهم أصول أخر لمحاسن الكلام و اننا لاننكر محاسن التشبيه وأنواعه و لكننا نجعله متفرعا عن أصل غير التشبيه و أساسه الصدق خلاف ما سمعت من مذهب أرسطو و أمثاله كما نبين لك حينما نكشف عن أصل البلاغة بعد ما أشرت إليه بالإجمال من مذهبهم في كنه محاسن الكلام و غايته و السبيل إليه لا أراك ترتضي به و كيف يرتضي عاقل بأن يصرف همته إلى أمر علة التكلف كالقردة و إسمه الاختلاق و ناصره الكذب و غرضه التلهي و لاسيما إن كان ممن يعلم أن البلاغة من أهم كمالات المرسلين و لاسيما إن كان من الذين يؤمنون بأنها من المعجزات أعلاها و أدناها و أبقاها و لاسيما إن كان ممن قام لدلالة الناس إلى حقيقتها و الإيضاح عن أسرارها فإن صدق ظني بك و أرجوه صادقا هاج بك الشوق إلى قصد السبيل بعد الحيادة عن جائرة". (٤)

من خلال دراسة هذا المقتبس الطويل يمكن أن تعرف معرفة تامة آراء الأستاذ الفراهي حول اللغة العربية و أصولها و طبيعتها كما تعرف آراءه البلاغية معرفة تامة - أن الأستاذ الفراهي يؤمن أن العرب أمة قد جبلها الله على بصيرة تامة على محاسن اللغة و بلاغتها حتى أنهم في الجاهلية كانوا يحكمون من كان أبصرهم بمعرفة اللغة و نقدها وكانت معرفة اللغة عامة شائعة بين الشعراء و الأدباء و إن لم تكن أسس البلاغة و نقدها مكتوبة مدونة مع ذلك كان ذوقهم في اللغة و البلاغة يجري على سنة و أصول معلومة نجد آثارها منتشرة في كتب اللغة و الأدب و التراجم .

يشرح الأستاذ الفراهي هذه الآراء والأفكار في كتابه المشهور (التكميل في أصول التأويل) يقول :

" و هكذا علم النظر إنما أسسه أرسطو و كان الناس قبله و بعده يستعملون

الأستاذ العلامة حميد الدين الفراهي

النظر و الاستدلال مع عدم التعلم والتمرن بأصول المنطق . بل المنطق قطرة من علم النظر الذي أودع الله في فطرة الإنسان فمن أحقق واستخرج مثل هذه العلوم ربما قصر وفرط و زاغ لذلك كثرت الاختلافات فيها و صار المشتغل بها أبعد عن سلامة الفطرة ألا ترى في كثير من المشتغلين بعلم العروض و المنطق و هكذا أقول في علم أصول الفقه ألا ترى أفقه الأمة و أعمقهم نظرا فيه إنما كانوا قبل تدوين هذه العلوم ألا ترى أنك تتطرب من شعر أو تهتز من خطبة ثم حاولت أن تبين وجوه المحاسن صعب عليك ثم ترى من سمع ببيانك ربما لا تحس بشئ من الاهتزاز بل كلما يزداد التفسير قل التأثير لذلك ترى المتوغلين في هذه العلوم العقلية و النظرية أبعد عن تحقيقها ممن أعطى فطرة سليمة و طبيعة مستقيمة" .

و لا شك أن كثيرا من الصحابة إذا فسروا القرآن كانوا كالبحر الزاخر و السحاب الهائل يلقون أصحابهم ما كان يملأ صدورهم علما و حكمة و لكن مع ذلك بل لذلك لم يستطع السامعون أن ينقلوه للخلف ألا ترى أنك تجلس في مجالس الوعظ و الخطب و ترى صدرك قد امتلأ و عقلك قد وعى معارف و لكن لا تستطيع إلقاءها على غيرك بل تراك تضمحل هذه المعارف و تنمي عن قلبك و لكنك تجد أثرها قد بقى و هكذا كانت خطب النبي صلى الله عليه و سلم و خطب البلغاء لم يحفظوها ولم يرووها إلا نبذا منها مع بقاء آثارها في القلوب و مارووا إنما هي قطرة من عباب" . (٥)

هناك نذكر ما أفاد الأستاذ على هامش نفس الكتاب بعنوان الفرق بين العلم الفطري و العلم الرسمي :

"العلم الذي حصل على طريق الفطرة لا يحس به صاحبه فإنه ليس عنه في صورة القضايا الكلية و لا يظهر علمه إلا عند وقوع الضرورة و يكون الحكم به حكما جزئيا و أما صاحب العلم الرسمي فعنده أصول و كليات منضبطة يحكم بها من غير وقوع المثل و الكليات المنضبطة ربما تكون قاصرة و ربما زائقة فالحكم بها كثير الغلط لذلك كثر الاختلاف في أهلها و لذلك كان العلماء السلف يكرهون السؤال و الحكم قبل حلول الواقعة .

أصحاب العلم الرسمي بعد التمرن الطويل ربما حصل لهم الذوق الفطري و إن كان أدون من الذوق الفطري الذي حصل لذوق العقول السليمة فهم يقربون من أهل

ثقافة الهند

العلم الفطري و يسمون ذلك ملكة و عند ذلك تضمحل العلوم الرسمية و أصولها وفروعها". (٦)

و لكن حين تطورت الثقافة العربية و توسعت المعارف الإسلامية و أصبحت قضية إعجاز القرآن و فن البلاغة فنا يدرس على أسس و أصول فمن سوء الحظ أخطأ علماء العرب حيث جتلوا الأسس علم البلاغة و أسسوا إعجاز القرآن على أسس العلوم اليونانية غير العلوم العربية و طبقوها على اللغة العربية و أصبحت هذه العلوم علوما صناعية و الكتب التي ألفت في هذا الموضوع كان أسلوبها أيضا أسلوبا متكلفا عقيما لا يحرك شعور القارئ و لا يخلق في نفسه ذوق البلاغة و الفصاحة و النقد الصحيح واستمر هذا الأسلوب الملتوي على مر القرون فنرى الأستاذ الفراهي ينقد هذا الأسلوب الجاف كما ينقد آراء علماء البلاغة الذين ضلوا السبيل بعد ذلك نرى الأستاذ الفراهي يتكلم عن غاية البلاغة و عن تعريفها بأسلوب علمي دقيق مشتمل على المعاني السامية و الأفكار العالية فيقول :

"إن الإنسان في فطرته ناطق فإن النطق هو الفصل المقوم له للمحاكاة كما زعم أرسطو فإن الإنسان ليس من خلاله المحاكاة كما يرى في بادئ الرأي فإنه لا يحاكي أحدا غير الإنسان فلو كان من طبعه المحاكاة لحاكي كل من مر عليه و أما اتباعه و والديه و كبراء بيته فسائر الحيوانات مثله و حقيقة الأمر أن الطفل له بالقوة خصائل الإنسان و رؤيته الفعلة تبعث فيه القوة " .

فتخرج كما أن رؤية الضحك تضحك و رؤية البكاء تبكي و رؤية الطعام تبعث الميل إليه وسيلة إلى العمل ألا ترى إن القوة تلهم استعمالها فمن يعلم النملة الطيران إذا نبت لها جناح و المص للرضيع . فهكذا محاكاته للصوت ليؤدي ما في نفسه و إن أمعا في واقعة الحال حكمنا بأن الطفل هو المعلم للسان لا المحاكي ' و بيانه أن الطفل هو الذي اخترع الأسماء من قبل نفسه من غير تعليم فإنه في أول الأمر يعطي مثلا للماء أسماء فيقول مم مم أو بب بب و كذلك يعطي الاسم أسماء لأبويه ماما بابا فهو المبتدع لا المحاكي و ليس هذا إلا لأن فيه همة و جهدا لأداء ما يريد فيحرك الشفة أولا و يلفظ بالحروف الشفوية و أول ما يقرع صماخه ليس إلا بكاءه و أول لغة و يستعمل رفعا و خفضا و نحيبا و عويلا فهذا البكاء يفتق آلات صوته و يعلم الجراثيم الحروف

الأستاذ العلامة حميد الدين الفراهي

الحلقية فيستعد لأداء أصوات أخرى ثم يأخذ لغة أبويه المصنوعة المبدلة من اللغة الأصلية التي هي أم اللغات فيؤدي ما في نفسه من لغته الخاصة لولاها لأداء على جهة أقرب إلى وضع آلاته فإننا لا نرى طائفة من الإنسان من غير لغة ومن علمهم غير فطرة الله فإن المحاكاة لأبد لها من منتهي وأصل ثابت كما أن لكل فرع لا بد من أصل ولكل نظري من بديهي. (٧)

نرى أن الأستاذ الفراهي يتكلم على صميم الموضوع الذي يتعلق بفطرة الإنسان ، وكيف هذا الإنسان يتعلم النطق والبيان والعقل ، و ثم ماذا تكون غاية هذا النطق وهذا البيان و هل يقال إن هذا النطق نطق صحيح إذا كان بدون هدف معبر و غاية شريفة ومتى يسمى هذا النطق بليغا فيقول :

"و اعلم أن حسن البلاغة و كماله يحتوي حسن ما يبلغه من الصور و المعاني و أولى باللحاظ فلا نقيم وزنا للكلام أبلغ بكمال الصحة شيئا خبيثا من نفس متدلسة بالخرس أحسن من هذا النطق و هذا رأى يستدعى بينا لصحة فإن أبا جعفر قدامة صاحب نقد الشعر هو أول من جعله فنا من العلوم قال قولا يضل به الغافل و إن كان له وجه صحيح".

فقال : " ليس فحاشة المعنى في نفسه ما يزيل جودة الشعر فيه كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلاً و رذاته في ذاته " وقال أيضا : " إن الشاعر ليس يوصف بأن يكون صادقا بل إنما يراد منه إذا أخذ في المعنى من المعاني كائننا من كان أن يجيده في وقته الحاضر " فلم يرو من الشعر إلا شيئا نازلا و صناعة دنيئة كما هو وجد أكثر المنتسبين إليه و إليه الإشارة في قوله تعالى : "الشعراء يتبعهم الغاؤون" و نحن نلتمس محاسن الكلام كما يليق به و كما وضعته الفطرة الإلهية و يقتضيه كما قوة النطق و يستعمله الشاعر و الخطيب الجديد بهذا الاسم. (٨)

و نحن نرى أن الأستاذ الفراهي كيف يناقش موضوع البلاغة مناقشة علمية دقيقة و يرى أن الكلام البليغ لا يكون كلاما بليغا بدون أن تكون فيه الأفكار العالية و المعاني السامية التي تدقق الشعور و ترفع مستوى الإنسان و يستمر في هذا البحث إلى أن يقول : "إن الشعر ليس إلا قسما من أقسام الكلام و الكلام ليس إسما للجرس المحض بل هو شئ مركب من المعنى و الصوت و الشئ المركب يحكم بحسنه لحاظا

ثقافة الهند

إلى أصل الأمر فيه مثلاً إنك لا تصف بالملاحة وجه رجل أعور أفتس إذا وجدت إحدى عينيه مليحة فكذلك الأمر في حسن الكلام نعم إن شئت قلت إن وزن هذا الشعر أو صوته حسن ثم نوزره هذا الرأي بأمر أقرب إلى الكلام من جهة الإ بلاغ وهو أن الكلام لا يبلغ قلب العاقل إلا أن يكون معناه شريفاً ولا اعتبار لتأثير الحمقاء والأشرار فإننا إنما نعطي الأشياء أسماء لحاظاً لسلامة الحال وإلا لزمك أن تسمى الكلام حسناً و قبيحاً معاً أو لا تسميه شيئاً وهذا أمر يتضح لك كل الإيضاح إذا بحثنا في أسباب بلوغ المعاني القلوب فتري أن الألفاظ ربما تصرف عن قواعدها الصحيحة العامة لأجل المعنى الذي يبلغ نفسه بقوة فيه و يجد الألفاظ حجاباً وتقللاً عليه كما أن ملكاً جعل نفسه سفيراً فالبليغ هو المعنى واللفظ مركبة فالمعنى أجدر بالالحاظ في حسن الكلام فذلك برهاتان ثم نعززهما بثالث هو أن العرب لم يحمداوا الكلام إلا لحسن معناه". (٨)

ثم نرى أن العلامة الفراهي يتكلم بالتفصيل عن الشعر والخطابة ويوضح ما بينهما من فرق واختلاف فيقول: "البلاغة أوضح في الشعر والخطب ابتداءً بذكرهما و بيان الفرق بينهما قال أرسطو إن الشعر حكاية عن أفعال الناس إما معاليها ونحازيها وإما أنا فلا أفرق الشعر من الخطابة من هذه الجهة بل قد وجدنا الشعر والخطابة لشريكين في البلاغة ' فأياً كان منها لا يكون أحسنه إلا ما كان أبلغه ولكن مع ذلك ' بينهما فرق عظيم ' فإن الفرق بين الشعر وغير الشعر لا يحصر في الوزن والقافية بل للشعر أوصاف آخر كما أن الخطيب ليس كل من قال: أما بعد... والآن نبين وجه الفرق ونوجهك إلى إسميهما عند العرب فإنهم أحق الأمم في التسمية فنعماً فعلوا حين سموا الشاعر شاعراً أو الخطيب خطيباً ' فإن الشاعر يشعر بعمل فيحتاج للقول فيقول كما أن الضحك والبكاء والتأوب والسرقة والعطسة أفعال غالبية على النفس فكذلك الشعر وليس هيجانه للقول إلا لأنه أكثر الناس شعوراً (فكما أن الجسم من جهة إحساس قاهر جسماني يصدر عنه التأوب والعطسة فكذلك النفس تشعر بباعث ما من السرور والحزن والرضا والسخط والعجب واليأس وأمثالها فينطق. ليس المراد بأكثر الناس شعوراً أنه يحزن بأكثر من سائر الناس بل أن شعوره يعمل فيه فينبه متخيله ونطقه وغناؤه فتيقظ فيه هذه القوة أما غيره فشعوره جامد وخامد فكان الشاعر نبات حي إذا سبقت أصله ذهب الماء في كل عرق منها فاهتز فكذلك الشاعر يدب الإحساس في جميع مشاعره فيفيض فيه الكلام كما قال عبد الله عمر بن عمر بن عثمان رضي

الأستاذ العلامة حميد الدين الفراهي

الله كيف تقول الشعر مع النسك و الفقه فقال إن المصدور لا يملك أن يتنفث و قيل لصحار العبدى ما هذا الكلام الذي يظهر منك قال شئ تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا فأما الخطيب فليس هو أقل شعورا من الشاعر و لكنه فارق الشاعر في أنه غالب على شعوره فليس حاله كالمصدور و المتناوب المقهور و لكنه قاهر على نفسه و منظم في المخاطبين فهمه التأثير في غيره كما أن الشاعر لا هم له إلا الاتقياد لقوى تعمل فيه فالخطيب لا يفرق الشاعر في الهيجان و لا قلة الشعور و لكنه بزيادة صفة عالية استحق هذا الاسم فالشاعر ملتفت إلى الماضي و الخطيب ينظر إلى المستقبل فالخطيب أرفع منزلة لغرضه الأعلى و أقوى عقلا و أشد قوة و أذكى نفسا كما أن الشاعر أغن طبعاً و أرق فطرة لذلك من نظر في كلام الخطيب و هيجان قلبه لم يؤمن بغلو غرضه و طهارة نفسه و صحة رأيه لم يفرقه من الشاعر بل لتصويره و صفوا الخطبة بالحكمة و البيان و الفصل كما أنهم و صفوا الشعر بالسحر فالشعر لخروجه من رقة الطبع و جهة النفس يمس النفس و الخطبة لخروجها من صفاء العقل و جهة البصيرة يمس العقل فكان أثر الشعر مشابهاً بالسحر ، و أثر الخطبة بنور العقل ، ثم لما كان الشعر أنسب بالوزن لعله ستعلمها صار الوزن من الصفات الظاهرة للشعر فإن صدر الكلام من جهة العقل في لباس الوزن فهو في الحقيقة أعلى و أرفع من الشعر و كذلك إن صدرت الخطبة من جهة نفسانية فهي أقرب إلى الشعر و الإنسان يعطي خصائص بعض الشئ لغيره و هم كانوا يتعجبون إذا وجدوا في الشعر حكمة و في البيان سحراً . (٩)

هكذا نرى الفراهي يدرس موضوعات البلاغة و النقد درساً عميقاً و يتناولها بالدراسة المسببة و يتعمق حتى يعطي للقارئ صورة واضحة كما يعطي فكرة مشرقة يهدي بها القارئ في فهم الكلام البليغ و الشعر القوي في جانب هذه الأبحاث هو يتناول مسألة قوة الألفاظ في التركيب و الجمل كما يتناول قيمة المعاني و الأفكار السامية في الشعر و يدرس قضية الاستعارة و التمثيل و المجاز و مدى أثرها في جميع أصناف الأدب و الفن و أعطى لكل موضوع نموذجاً نادراً من أمثال و أشعار للتوضيح و التفصيل ما يزيده و كل هذا يدل على مدى قدرته لفهم كلام العرب و قوة إدراكه لفهم المعاني و رقة نفسه للانسجام مع عواطف الشاعر من أحسن النموذج الذي قدمه في التشبيهات قول نصيب :

ثقافة الهند

كأن القلب ليلة قيل يفدي بليلى العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح
لها فرحان قد تركا بوكر فعشهما تصفقه الرياح
إذا سمعا هبوب الريح نصا وقد أودى به القدر المتاح
فلا في الليل نالت ما ترجى ولا في الصبح كان لها براح .

فنرى في هذه الأبيات صورة القلب المضطرب القلق كالقطاة التي وقعت في شرك ' و هي ترفرف بجناحيها وتحاول الخروج والخلص ولكنها لا تتجعد ولا تصل إلى غاية تريدها و تتمناها . فهذه الصورة الجميلة بما فيها من تشبيهات رائعة ومجازات دقيقة جعلت القصيدة تمثل صورة القلب المضطرب بالحائر .

هذه الأبحاث التي تناولها الأستاذ الفراهي هي جديدة و نادرة في عصره لأن الكتب التي كانت طبعت و نشرت في موضوع النقد و البلاغة إلى أوائل العقد الأول للقرن العشرين كانت تنهج منهج القديم و تبحث الموضوعات البلاغية و النقدية التي لا صلة لها بالنقد و الأدب بل هي كانت الغازا أو رموزا يحللها الأستاذ و يشرحها كما تشرح كتب الفلسفة و المنطق فالأسلوب المنطقي و الفلسفي هو كان أسلوب أكثر هذه الكتب في هذه الموضوعات اللهم إلا عدد قليل من المؤلفين أمثال الجاحظ و عبد القاهر الجرجاني .

لقد قرأ الأستاذ الفراهي كتب الجاحظ فتأثر به كثيرا وأثنى عليه ثناء حارا و لكنه هاجم عبد القاهر الجرجاني و آراءه لأنه رأى أنه يقلد علماء اليونان في آرائه البلاغية و لكنني أرى أن الأستاذ الفراهي حينما هاجم الجرجاني فكان في هجومه غير مصيب لأنه لم يدرس الجرجاني دراسة موضوعية بل أنه حين وجد في كتبه بعض الآراء الذي يخالف رأيه فهاجم عليه هجوما و لم يراع الظروف التي آلف فيها الجرجاني 'دلائل الإعجاز' و أسرار البلاغة ' حيث أنه اهتم بالمعنى أكثر من اللفظ و الأسلوب .

و هذان الكتابان يعدان من أحسن الكتب في النقد العربي حتى أن جميع الكتاب في عصرنا هذا جعلوا آراءه و أفكاره مصدرا أساسيا لأبحاثهم و دراساتهم

الأستاذ العلامة حميد الدين الفراهي

النقدية و أن عددا كبيرا من المؤلفين و الباحثين في اللغة العربية منهم الأمدي الذي ألف كتابا هاما بإسم "الموازنة بين الطائيين" مع أن هذا الكتاب يدور حول موضوع الموازنة بين الشخصيتين و لكنه في أثناء الموازنة أتى بأبحاث من أهم الأبحاث في النقد و البلاغة و هذه الأبحاث في الحقيقة هي من صميم النقد العربي الأصيل و كذلك ألف كتابا مستقلا هاجم فيه هجوما على قدامة بن جعفر و سمى كتابه هذا (تبيين غلط قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر) . في هذا الكتاب لم يهاجم الأمدي قدامة فحسب بل هو فند فيه جميع الأبحاث و الآراء التي تبناها نقاد العرب من آراء أرسطو إذاً ليس من الصحيح أن نقول إن جميع الكتاب و العلماء في اللغة العربية قلدوا أرسطو فهناك كتب أخرى نجد فيها نظريات و أفكارا فكلها مقتبسة من اللغة العربية لا صلة لها بالفكر اليوناني . مثلا كتاب الوساطة بين المتنبى و خصومه للجرجاني و المثل السائر لابن أثير و كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني هذه الكتب من أروع المصادر البلاغية و النقدية في اللغة العربية فلو أن الأستاذ الفراهي قرأ هذه الكتب التي ذكرناها لغير كثيرا من آرائه عن علماء البلاغة و النقد و لكن من سوء الحظ أن هذه الكتب لم تطبع في حياته لذلك لم يستفد بها .

على كل حال الآراء النقدية و البلاغية التي قدّمها الأستاذ الفراهي في كتابه جمهرة البلاغة و الكتب الأخرى التي تبحث عن إعجاز القرآن و تفصيل آياته هذه الأبحاث جديرة بالبحث و التحليل لأنها تكون أسوة لكل باحث و ناقد يريد أن يبحث في فن النقد و اللغة .

الأستاذ الفراهي اختار اللغة العربية لغة الكتابة لجميع آثاره الأدبية و العلمية فهو بهذا العمل الجليل قد أضاف ثروة فكرية و ثقافية و لغوية إلى اللغة العربية و بخاصة في زمن كانت اللغة العربية في حاجة إلى مثل هذه الآثار العلمية الأدبية لأن الكتب و المؤلفات و الأبحاث التي كانت تكتب فيها إلى عصره كلها كانت سقيمة الأسلوب عقيمة الفكر و كانت شرحا أو تلخيصا للكتب العربية القديمة التي ألقت في عصور ضعف فيها مستوى اللغة و الفن و الثقافة . و كانت هذه الكتب من سوء الحظ من المقررات في المدارس و المعاهد في الهند و البلاد العربية كلها . أما الأبحاث التي قدّمها الفراهي في النقد و البلاغة هي كلها مقتبسة و مستنبطة من النصوص العربية الأصيلة و رصينة في لغة عربية سليمة أسلوب الفراهي أسلوب عربي صحيح و هو

ثقافة الهند

يؤثر الإيجاز على الاطناب و السبب في ذلك إنه يقرأ كثيرا فتكون في ذهنه ثروة عظيمة و مادة وافرة للموضوع فيركب هذه الأفكار و يرتب هذه التجارب لذلك يكون أسلوبه أسلوبا مركزا رصينا و أحيانا نراه يبالغ في التركيز و الإيجاز فيصعب على القارئ فهم الموضوع -على كل حال أن الأستاذ الفراهي هو من الشخصيات الفذة التي رفعت مستوى اللغة العربية كما رفعت مستوى التأليف و التصنيف في الهند بل في العالم العربي كله . لا نرى في الهند باحثا و لا عالما قبل العلامة الفراهي تناول موضوع النقد و البلاغة بهذه المقدرة و هذه الثقة . كما لا نرى باحثا بعده اهتم بهذا الموضوع و أضاف شيئا جديدا إلى اللغة العربية . و أما البلاد العربية فقد نرى فيها كتباً قد ظهرت و طبعت بعد العقد الثاني من هذا القرن و هذه الكتب أكثرها قد اعتمدت على الكتب التي ألغت في اللغة الإنجليزية و الفرنسية لأن النقاد و الباحثين الذين تناولوا هذا الموضوع كانت ثقافتهم إنجليزية أو فرنسية . فنرى أن أكثر الناقدين في أوائل هذا القرن ينقلون آراء الغرب و أفكارهم إلى اللغة العربية بدون تمحيص أو تنقيح و لم يراعوا فيها طبيعة اللغة العربية و لا المستوى الفكري للشعب العربي ولكن بمر الأيام حين تقدم مستوى اللغة العربية و نضج الفكر العربي فبدأ علماء العرب في مصر و في البلاد العربية الأخرى يدرسون الآثار العربية القديمة في النقد و البلاغة و النصوص الأدبية و الفنية من العصور المختلفة ثم درسوا آثار الغرب دراسة عميقة كما درسوا تطور الأدب العربي في المراحل المختلفة و ما ظهر في النقد و البلاغة بعد ظهور هذه النصوص الأدبية و الفنية فنقلوا الأفكار الغربية إلى اللغة العربية بعد الغربلة و التمهيص . فكانت هذه الأبحاث مفيدة استفادت بها اللغة العربية . ولكننا لا نرى أن هؤلاء العلماء جاءوا بشئ جديد و بفكر مبتكر بل درسوا آراء علماء العرب الأقدمين و آراء علماء الغرب المحدثين فوازنوا بين هذه الآراء المختلفة فقدموها في أسلوب عربي جديد . أما الأستاذ الفراهي حينما تكلم على موضوع النقد و البلاغة فنراه في كل مرحلة يقدم شيئا جديدا و فكرا بديعا . فهو بأعماله العلمية و آثاره الأدبية أصبح معجزة للثقافة العربية و الدينية و يبقى خالدا في صفحات تاريخ الفن و الأدب .

تعريب : تسنيم كوثر

الأستاذ العلامة حميد الدين الفراهي

الهوامش :

- ١- القيت المقالة في الندوة العالمية عن (حياة العلامة حميد الدين الفراهي و آثاره) التي عقدت في مدرسة الإصلاح سرامير بأعظم كره بتاريخ ٧/٩/١٩٩١ م
- ٢- سورة آل عمران الآية : ١٦٤ .
- ٣- جمهرة البلاغة للأستاذ حميد الدين الفراهي ص : ٤ - ٦ .
- ٤- المصدر السابق ص : ٦ - ٧ .
- ٥- التكميل في أصول التأويل للأستاذ حميد الدين الفراهي ص : ١١ - ١٢ .
- ٦- المصدر السابق ص : ١٢ .
- ٧- جمهرة البلاغة للأستاذ حميد الدين الفراهي ص : ٨ .
- ٨- المصدر السابق ص : ٩ - ١٠ .
- ٩- المصدر السابق ص : ١٧ .